ذبحت أمي من أجل الحب

رمضان مصطفى سليمان

كانت قاعة المحكمة تشبه بئرًا عميقًا من الصمت، الجدران شاهقة، والوجوه جامدة، كأن الزمن نفسه جلس متهمًا إلى جانب الرجل الواقف في القفص الحديدي.

لم يكن اسمُه غريبًا، ولا ملامحه صادمة. كان رجلا عاديًا إلى حدٍّ مرعب.

لكن الجريمة، كانت أكبر من أن يحتملها وصف جريمة تمثل كل البشاعة ، بل الجحود .

*

القاضي ،بصوتٍ يهبط كالمطر البارد على جمجمة الحقيقة، :

حميد حسانين عبد الوهاب، أنت متهم بقتل والدتك عمدًا مع سبق الإصرار والترصد. ماذا تقول؟

رفع حميد رأسه ببطء، كما لو أن عنقه يحمل صخرة لا تُرى. كانت حركته ثقيلة، مشبعة بتعبٍ لا ينتمي للجسد وحده، بل لشيءٍ أعمق، شيءٍ يسكن الروح حين تتآكل من الداخل.

عيناه غائرتان، ممتلئتان بشيءٍ يشبه الندم، أو ربما فراغًا أعمق من الندم، كحفرةٍ لا يصلها الضوء.

حميد ،بصوتٍ متكسر، كأن الحروف تجرح حلقه وهي تخرج، : نعم،

، يصمت، يبتلع الهواء كمن يغرق،

ذبحتُ أمي، بالسكين، لأنها وقفت في طريق سعادتي.

سقطت الكلمات في القاعة كأجسادٍ بلا أرواح.لم يتحرك أحد. حتى الهواء بدا وكأنه خائف من الاقتراب، كأنه شاهدٌ لا يريد أن يُستدعى.

لكن داخل حميد، لم يكن هناك صمت .كان هناك ضجيج .ضجيج ذاكرةٍ ترفض أن تموت.

"لم تكن هكذا دائمًا،"

همس داخلي يتسلل في رأسه، كصوتٍ يعرفه أكثر مما يعرف نفسه.

يرى أمه، لا كما كانت على الأرض، بل كما كانت في المطبخ، تضحك رغم التعب، تخبئ له قطعة خبزٍ ساخنة كأنها كنز. يرى يديها، المرتجفتين من العمل، وهما تمسدان شعره .

"كنتُ كل شيء لها،" "فمتى صرتُ عدوها؟"

حميد ،في داخله، بصوتٍ يختنق : ،

لماذا كنتِ دائمًا تقولين "لا"؟ لماذا كنتِ تخافين عليّ إلى هذا الحد؟ ألم ترَيْ أنني كنت أختنق؟ ألم تشعري أنني أريد أن أعيش، بطريقتي؟

صوتٌ آخر يرد، هادئ، موجع، يشبهها:

" كنتُ أخاف أن أفقدك،"

يرتجف .يضرب صوته الداخلي جدران رأسه كطائرٍ محبوس.

القاضي ،بصرامةٍ تخفي ارتباكًا إنسانيًا ، :

هل تدرك ما تقول؟ أتدرك فداحة ما فعلت؟

حميد ينظر إليه، لكن عينيه لا تريان القاضي، إنهما عالقتان في تلك اللحظة

. *

الليلُ كان كثيفًا كفكرةٍ لم تكتمل، يضغط على الجدران حتى تكاد تنطق.

السكينُ على الطاولة لم تكن أداة، بل احتمالًا باردًا يلمع في عتمةٍ مترددة.

وصوتُها—حين قالت :

"لن أسمح لك بهذا الطريق—"

لم يكن صوتًا فقط، كان حدًّا فاصلاً بين ما تبقّى منه، وما قد يصير إليه.

في داخله، لم تصل الجملة كما قيلت. تكسّرت، تشظّت، ثم أعادت تشكيل نفسها كقيدٍ يلتف حول عنقه ببطء. كحكمٍ لم يُعلن بعد، لكنه نُفّذ. كجدارٍ أخير، يقف بينه وبين وهمٍ أسماه طويلًا: الحرية.

وقف حميد، يحدّق في السكين كما لو أنها تحدّق فيه. ابتلع ريقه، وشعر بأن حلقه صار ضيقًا، كأن الكلمات علقت فيه منذ زمن.

كنتُ أريد فقط أن أصمت كل شيء، كل الأصوات، صوتكِ، صوتي، الخوف، الفشل، كل شيء.

ترددت الكلمات في صدره، ثم ارتدّت كصدى في غرفةٍ فارغة. لكن داخله لم يكن فارغًا—كان مزدحمًا حدّ الاختناق.

لم تكن المشكلة في الضجيج، بل في أنك لم تعد تعرف من يتكلم. أيّ صوتٍ هو صوتك؟ وأيّها مجرد ظلٍّ لآخرين؟ متى بدأتَ تخاف من نفسك؟

أدار وجهه نحوها. كانت واقفة عند الباب، يداها متشابكتان، كأنها تمسك نفسها من الانهيار. في عينيها شيء لم يفهمه تمامًا—خوف؟ شفقة؟ أم خيبة قديمة؟

هي ،بصوتٍ منخفض، لكنه ثابت،: :

هذا ليس حلًا، حميد. أنت لا تريد الصمت، أنت تريد الهروب.

ابتسم ابتسامة باهتة، كمن سمع الحقيقة متأخرًا .خطا خطوة نحو الطاولة، ثم توقف .كان بينه وبين السكين مسافة قصيرة، لكنها بدت كعمرٍ كامل.

الهروب؟ وهل هناك فرق؟ حين يعلو كل شيء في رأسك حتى لا تعود تسمع نفسك، أليس الصمت خلاصًا؟

اقتربت خطوة، ثم أخرى. لم تلمسه. لم تجرؤ. لكن صوتها كان أقرب هذه المرة، كأنه يحاول أن يصل إلى شيء أعمق من أذنيه.

هي:

الصمت الذي تبحث عنه، ليس هناك. هو فقط غيابك أنت.

ارتجف داخله. شعر بأن شيئًا انكسر، لا بصوتٍ عالٍ، بل بهدوءٍ مخيف، كزجاجٍ يتشقق من الداخل.

غيابي، أهذا ما أردته حقًا؟ أن أختفي، لا أن أهدأ؟

أغمض عينيه لحظة. مرّت صورٌ سريعة—طفلٌ يضحك، يدٌ تمسكه، حلمٌ بسيط لم يكتمل.

ثم عاد الصوت. صوتها. صوته. كل شيء.

فتح عينيه ببطء. لم يعد ينظر إلى السكين. بل إلى يديه—كأنهما غريبتان عنه.

أنا، لم أعد أعرفني.

سكتت .ثم اقتربت أخيرًا، حتى صارت المسافة بينهما أقل من خوفٍ واحد.

إذًا، لا تتركه يضيع هكذا.

رفع رأسه نحوها.

ولأول مرة، لم يشعر بأن صوتها جدار .بل كخيطٍ رفيع، يكاد ينقطع، لكنه ما زال يصل.

الليل لم يخفّ. والسكين بقيت حيث هي.

لكن شيئًا صغيرًا، بالكاد يُرى، بدأ يتحرك في داخله.

*

يعود إلى القاعة كما يعود صدىً ضلّ طريقه، لا ليدخل مكانًا بل ليقع في نفسه من جديد. الأرض باردة، لكنها لا تقارن ببرودة الحقيقة التي تستقر الآن في صدره كحجرٍ لا يُرفع. الضوء يتسلل خافتًا، كأنه يخجل من أن يكشف ما تبقى من إنسان في هذا الجسد المرتعش.

وقف حميد، لا كمتهمٍ أمام قاضٍ، بل كروحٍ أمام مرآةٍ لا ترحم.

حميد ،بصوتٍ متهدّج، كأن الكلمات تُنتزع من بين أضلعه،: "ظننتُ أنني سأكون حرًا... كنت أعتقد أن لحظةً واحدة كفيلة بأن تفتح باب الخلاص... لكن"—

يصمت، يبتلع الهواء كما لو أنه شوك.

"لكنني منذ تلك اللحظة... لم أغادر السكين".

ترتجف يداه. لا يرفعهما، كأنه يخشى أن يراهما الآخرون ملوثتين بما لا يُرى. عيناه تتسعان فجأة، لا دهشةً بل فزعًا، كأن مشهدًا ما يُعاد أمامه، أدق من الذاكرة وأقسى من الحلم.

حميد ،بهمسٍ مشروخ، :

"أنا لم أقتلها فقط... أنا علقتُ هناك... في تلك اللحظة... إلى الأبد".

يتردد صدى صوته في داخله قبل أن يبلغ الجدران. يسمع نفسه كما لو كان غريبًا عنه، كما لو أن المتكلم رجل آخر، أكثر صدقًا، وأكثر خرابًا.

في داخله، يبدأ الحوار الذي لا يسمعه أحد. " لماذا فعلتَ ذلك؟"

يسأله صوتٌ يشبهه، لكنه أنقى، كأنه ما تبقى منه قبل السقوط.

"كنتُ أريد أن أنجو".

يرد، لكن الإجابة تبدو هزيلة، كعذرٍ طفلٍ ضائع.

"وهل نجوت؟"

يصمت داخليًا كما صمت خارجيًا. تتكاثر الصور: يدها، عيناها، تلك اللحظة التي انكسرت فيها العلاقة بين الفعل والزمن. هناك، تحديدًا هناك، توقف كل شيء... إلا هو. أو ربما، هو الذي توقف، وبقي كل شيء يدور حوله.

يرفع رأسه ببطء، ينظر إلى الفراغ، أو إلى شيء لا يراه غيره.

حميد ،بصوتٍ أثقل، كأنه يجرّ عمرًا كاملًا خلفه، :

"كانت تنظر إليّ... لم تصرخ... فقط نظرت. كأنها كانت تعرف أنني... لن أستطيع الهرب من نفسي بعدها".

يضحك ضحكة قصيرة، جافة، بلا حياة.

"وأنا صدقتها متأخرًا".

يتقدم خطوة، ثم يتراجع، كأن الأرض نفسها ترفض أن تحمله.

صوت آخر، من خارج رأسه، هادئ لكنه نافذ:

"حميد... هل تدرك ما تقول؟"

يلتفت ببطء، لكن عينيه لا تستقران على وجهٍ بعينه. كأن الجميع صاروا مجرد ظلال.

حميد:
"الإدراك؟

،يبتسم ابتسامة باهتة،" الإدراك هو العقوبة. السكين لم تكن في يدي فقط... كانت في الزمن. قطعتُ به حياتي إلى نصفين... وما زلتُ عالقًا عند الحدّ".

يصمت.

لكن هذه المرة، الصمت ليس فراغًا. إنه امتلاءٌ قاتل. امتلاءٌ بصورة أمٍ لم تعد موجودة، بظلّها الذي لا يغادر الجدران، بصوتها الذي يتردد في ذاكرته كنداءٍ بلا نهاية.

ويمتلئ أيضًا بابنٍ - أو ربما بقايا ابن- يقف الآن، عاجزًا عن أن يعرف إن كان ما يزال حيًا، أم مجرد شاهدٍ على لحظةٍ لم تنتهِ.

في تلك القاعة، لم يكن هناك حكمٌ يُتلى.

كان الحكم قد صدر منذ زمن... في اللحظة التي لم يغادرها حميد أبدًا.

*

كان البيت يغلي بالحياة، كقدرٍ تُرك على نارٍ عالية؛ ضحكاتٌ تتقافز في الأركان، أحاديث متقاطعة كخيوطٍ مشدودة بين أفواهٍ لا تتعب، صريرُ أبوابٍ يئنّ كشيخٍ ضجر، ووقعُ أقدامٍ يطرق الأرض كأنها قلبٌ آخر يخفق خارج صدره. لكن، في داخله، كان الصمتُ أكثر كثافةً من كل ذلك الضجيج.

جلس في ركن الغرفة، منكمشًا على ذاته، ككائنٍ يحاول أن يتلاشى. دسّ رأسه بين كفّيه، لا ليحميه، بل ليحتجز أفكاره، كأن جمجمته بابٌ قد ينفتح فجأةً فتنسكب منه الفوضى.

قال في سرّه:

"كيف يمكن لهذا العالم أن يكون ممتلئًا إلى هذا الحد، وأنا فارغ؟"

مرّت أمامه أخته، توقفت لحظة، نظرت إليه بعينين فيهما شيء من القلق، ثم قالت :

"مالك؟ أنت ساكت كده ليه؟"

رفع رأسه ببطء، كمن يصعد من قاع بئر، وأجاب بنبرةٍ واهنة:

"مفيش، بس صداع".

ابتسمت ابتسامةً سريعة، لا تُصدّق ولا تُكذّب، ومضت.

عاد رأسه ينحني، لكن هذه المرة لم يختبئ، بل استسلم. "صداع؟ "سخر في داخله.

"لو كان الألم يُقاس بالصداع لنجوت".

تسللت إليه الأصوات من جديد، لكنها لم تعد أصواتًا، صارت همساتٍ مشوّهة، كأنها تأتي من خلف جدارٍ زجاجي سميك. "هل أنا هنا فعلًا؟ أم أنني مجرد ظلٍّ يتذكّر أنه كان يومًا إنسانًا؟"

اقترب صديقه، جلس بجانبه دون استئذان، ربت على كتفه قائلًا:

"إنت مختفي بقالك كتير، حتى وإنت وسطنا".

صمت قليلًا، ثم أضاف بنبرةٍ أقل خفة:

"في حاجة جواك، صح؟"

رفع عينيه نحوه، لأول مرة، نظر مباشرةً، وكأن النظر فعلٌ يحتاج شجاعة.

قال ببطء، مترددًا بين الاعتراف والهروب :

"بحس، إني مش تابع لأي حاجة هنا. كأن كل ده، مش ليا".

تنهّد صديقه، لم يعارضه، فقط قال:

"يمكن المشكلة مش في المكان، يمكن في الصوت اللي جواك".

اهتزّ شيءٌ داخله.

"الصوت؟" ذلك الصوت الذي لا يصمت، الذي يُعيد عليه كل شيء، كل فشل، كل لحظة ضعف، كل مرة لم يكن كافيًا.

قال في نفسه، وكأنه يواجهه لأول مرة:

"ماذا تريد مني؟ لماذا لا تتركني؟"

وجاءه الرد، لا ككلمات، بل كشعورٍ باردٍ ينساب في صدره:

"لأنك لم تتركني أولًا".

ابتلع ريقه، وشعر بأن الغرفة تضيق، رغم اتساعها، وأن الوجوه تبتعد، رغم قربها.

قال لصديقه بصوتٍ خافت" :أنا تعبت، من نفسي".

ساد صمتٌ قصير، لكنه كان أصدق من كل الضجيج المحيط.

ثم قال صديقه، بهدوءٍ لا يخلو من حنان:

"يمكن، أول خطوة إنك تبطل تحاربها لوحدك".

رفع رأسه مرةً أخرى، لا ليهرب هذه المرة، بل ليبحث.

نظر حوله؛ نفس البيت، نفس الأصوات، نفس الوجوه، لكن شيئًا صغيرًا تغيّر. لم يعد المكان خاليًا تمامًا.

*

كنتُ بينهم أعيش، لكنني لم أكن واحدًا منهم. لم يكن الاختلاف صاخبًا، ولا واضحًا كجرحٍ مفتوح، بل كان خفيًا، كشرخٍ دقيق في زجاج الروح، لا يراه أحد، لكنه يُشوّه كل ما يُرى من خلاله. كُنتُ أجلس بينهم على المائدة، أشاركهم الخبز والكلمات، لكن شيئًا في داخلي كان يبقى واقفًا، متحفزًا، كأنني على وشك المغادرة دائمًا.

أمي، لم تكن تكرهني، أو هكذا كنت أُقنع نفسي. كانت تنظر إليّ كأنني خطأ مطبعي في جملة العائلة؛ شيءٌ لا يُصلح بالحذف، ولا يُفهم بالإبقاء. نظراتها لم تكن قاسية، بل أبرد من القسوة. والقسوة، على قسوتها، تمنحك اعترافًا ما. أما البرود، فهو إنكارٌ ناعم، صامت، يُطفئك دون أن يترك رمادًا.

"لماذا تنظرين إليّ هكذا؟" سألتها مرة، بصوتٍ حاولت أن أجعله عاديًا، لكنه خرج مهتزًا، كوترٍ مشدود أكثر من اللازم.

رفعت عينيها عن فنجان القهوة، نظرت إليّ لحظة، ثم قالت:

"كيف أنظر؟"

سكتُّ. لأنني أدركت أنني لا أملك لغةً تصف بها الغياب وهو جالس أمامي. كيف أشرح لها أنني أشعر أنني غير مرئي، رغم أنني أمامها تمامًا؟

في داخلي، كان صوتٌ آخر يتكلم:

أنت تبالغ. المشكلة فيك. دائمًا فيك. لكن صوتًا أعمق، أكثر هدوءًا، كان يردّ:

لا، هناك شيء مكسور، ولم تكسره أنت.

كنتُ أعود إلى غرفتي، وأغلق الباب كأنني أُغلق العالم كله. أجلس على حافة السرير، أحدّق في الفراغ، ذلك الفراغ الذي لم يعد مجرد غياب، بل صار كيانًا. كثيفًا، ثقيلاً، كأنه سحبٌ سوداء تبتلع الضوء قبل أن يصل.

‘‘ماذا فعلت؟’’ همستُ لنفسي .

"هل وُلدت بطريقة خاطئة؟ هل أخطأت في كوني أنا؟’’

السؤال كان يرتدّ في رأسي، يصطدم بجدران لا تُرى، ثم يعود إليّ دون إجابة. كأن عقلي نفسه يرفض أن يكون شاهدًا أو قاضيًا.

في إحدى الليالي، سمعت صوت أمي في الخارج، تضحك مع أخي. ضحكة دافئة، ممتلئة، لم أسمعها من قبل وهي موجهة إليّ. اقتربت من الباب، وضعت أذني عليه، كطفلٍ يتجسس على حياة لا تخصه.

قال أخي شيئًا، فضحكت مجددًا، ثم أضافت بنبرةٍ خفيفة: ‘‘هو دائمًا غريب، لا أعرف كيف أفهمه’’.

تجمدتُ. لم يكن في صوتها كره، بل عجز. وهذا كان أسوأ.

عدتُ إلى السرير، جلستُ ببطء، كأنني أحمل جسدًا ليس لي. في داخلي، بدأ الحوار من جديد:

ربما عليك أن تتغير. إلى ماذا؟ إلى ما يفهمونه. وإن لم أعد أنا؟ هل أنت الآن موجود أصلًا؟

أغمضتُ عينيّ. للحظة، تمنيت لو أنني أختفي حقًا، لا كفكرة، بل كحقيقة. أن أتحول إلى ذلك الفراغ الذي يسكنني، أن أذوب فيه، فلا أعود مضطرًا لتفسير نفسي، أو الدفاع عن وجودي.

لكنني لم أختفِ .بقيتُ هناك، بين عالمٍ يراني غريبًا، وداخلٍ لا يكفّ عن سؤالي:

من أنا، إذا لم أكن لهم، ولم أكن لي؟

*

الضوء أحمر، ليس مجرد لون، بل نزيفٌ بطيء يملأ الجدران، يزحف على السقف، ويستقر في عيني حميد كحقيقةٍ لا يمكن إنكارها. ا

لغرفة تبدو كجسدٍ مفتوح، وهو في قلبه، يجلس على الأرض، متكئًا على صمتٍ أثقل من الألم.

في يده سكين صغيرة، عادية إلى حد السخرية، كأنها لا تعرف الدور الذي أُوكل إليها. أصابعه لا ترتجف. عيناه ثابتتان، لا حياة فيهما، كأنهما سبقتاه إلى الغياب.

"إذا لم أكن موجودًا، هل سيتغير شيء؟"

صوته الداخلي لا يخرج، لكنه يملأ رأسه كصدى في كهفٍ مهجور.

"هل ستلاحظ أمي الغياب، الذي لم تلاحظ حضوره أصلًا؟"

تتسلل ذكرى: أمه تمر بجانبه، تحمل أكياس الخبز، لا تنظر إليه، لا تنادي اسمه. كأنه قطعة أثاث أُعيد ترتيبها ولم يُسأل عن مكانها.

يبتسم ابتسامة خفيفة، موجعة.

"ربما، الغياب مجرد شكل آخر من أشكال الصمت".

يرفع السكين. يضعها على معصمه. الجلد بارد، أو ربما هو الذي أصبح أبرد من أن يشعر.

في تلك اللحظة، يتكلم، ليس بصوت، بل بشيء يشبه الحوار بين نسختين منه:

" ما الذي تفعله؟"
" أنهي الضوضاء".
" وهل الصمت حل؟"
" على الأقل، هو صادق".

يمرر النصل.

لا صرخة. لا مقاومة. فقط انفتاح هادئ، كأن الجسد يوافق أخيرًا على قرارٍ تأخر كثيرًا.

الدم يخرج ببطء، ليس اندفاعًا، بل تسريبًا خجولًا، كأن الحياة نفسها تغادر دون أن تودع.

يراقبه.

"هكذا إذًا، كنتُ ممتلئًا بكل هذا، ولم أشعر".

الغرفة تبتعد. أو هو الذي يبتعد عنها.
الضوء الأحمر يصبح أعمق، أكثر نعومة، كأنه يحتضنه.

تظهر أصوات، بعيدة، مشوشة.

"حميد"!
"افتح عينيك"!

لكنها لا تعنيه. ليست موجهة له، بل لجسدٍ كان يسكنه.

في داخله، سكونٌ غريب. ليس راحة، لكنه ليس ألمًا أيضًا.
شيء بين الاثنين، منطقة رمادية بلا أسماء.

"هل هذا هو الموت؟، أم مجرد استراحة؟"

يحاول أن يتذكر شيئًا يستحق البقاء. وجه، ضحكة، لمسة لا شيء يثبت. كل الذكريات تتفكك كغبار.

"إذًا، لم أخسر شيئًا".

لكن فجأة، شيء صغير، تفصيل تافه،
صوت أمه وهي تناديه طفلًا: "حميد، تعال كل".
النبرة لم تكن دافئة، لكنها كانت موجودة.

"ربما، كان هناك شيء".

ثم، ظلام.

صوت .منتظم.ميكانيكي.

بي، بي، بي،

الضوء أبيض هذه المرة، قاسٍ، بلا شاعرية.

يفتح عينيه بصعوبة.

السقف غريب. الهواء ثقيل برائحة معقمة. جهاز بجانبه ينبض نيابة عنه.

"أنا، ما زلت هنا؟"

يهمس الصوت الداخلي، مذهولًا.

"يبدو أنك لم تُقبل".
" أم أُعيدت إليّ الحياة؟"
" أم أنها مجرد مهلة أخرى؟"

يحاول تحريك يده، يجدها مربوطة بأنابيب.

ينظر إلى معصمه، مغطى ، مخفي، كأن أحدهم قرر أن يمحو ما حدث.

يدخل صوت من الخارج:

"الحمد لله، فاق".

صوت أمه.

يلتفت بعينيه ببطء. يراها واقفة عند الباب، لا تبكي، لكن عينيها لا تشبهان ما يتذكره.

يسأل نفسه:

"هل هذا القلق، لأجلي؟ أم لفكرة فقداني؟"

يصمت.

ثم، لأول مرة، يشعر بشيء غير الفراغ، شيء صغير، غير مكتمل، يشبه السؤال:

"إذا لم أمت، فهل يمكن أن أكون موجودًا فعلًا هذه المرة؟"

الجهاز يستمر في النبض. حياة، مُعارة، نعم. لكنها، ربما، لم تعد بلا معنى تمامًا.

*

ليل. درجٌ قديم، يبتلع الضوء.

كانت تقف هناك، كأنها خرجت من حلمٍ لم يكن يتجرأ على حلمه.

تردد، خطوة، ثم أخرى.

حميد بصوت مرتعش ، ليس خوفًا بل انكشافًا :

سميحة ، أنا، أنا بحبك.

نظرت إليه. صمتت لحظة ، كأنها تختبر صدق الكلمة في الهواء. ثم ابتسمت. ابتسامة صغيرة، لكنها كانت كافية لإنقاذ رجل من الغرق.

سميحة ،بخجل دافئ :،

وأنا كمان، كنت مستنية منك الكلمة دي من زمان.

في تلك اللحظة، لم يعد العالم ضيقًا.

حميد ،مونولوج داخلي ، :

هل يمكن أن يولد الإنسان مرتين؟ إذا كان نعم، فقد وُلدت الآن.

هي، نافذتي الأولى . الهواء الذي لم أتنفسه من قبل ، صار يمشي أخف. يضحك أكثر. يحلم، لأول مرة دون خوف.

*

منتصف الليل. المطبخ بارد، كقلب قرارٍ قاسٍ.

وقف أمام أمه .عيناه مليئتان برجاءٍ لا يشبهه.

حميد:

ـ أنا عايز أتجوز سميحة .

لم تستغرق الإجابة وقتًا.

الأم ،بصوت حاد، كالسكاكين،:

على جثتي! بنت ما تنفعش، سمعتها زفت! كل يوم مع واحد!

شيء ما انكسر داخله. ليس لأن الكلام قاسٍ، بل لأنه جاء منها.

حميد ،بصوت منخفض ، :

بس أنا بحبها،

الأم:
الحب؟!
،تضحك بسخرية باردة،
أنت ما تفهمش حاجة. طول عمرك غلط.
خرجت،
وتركت خلفها جملة لم تقلها ، لكنها كانت واضحة:
"أنت خطأ".
وقف وحده. الساعة تدق. والصمت، يتمدد.
حميد ،بهمس مظلم ،
إذن، على جثتك فعلًا. أنتِ من طلبتِ ذلك.
ولم يكن يدرك، أنه في تلك اللحظة، لم يكن يتحدث إليها. بل إلى كل الألم المتراكم فيها.

*

الليل ثقيل. الغرفة غارقة في ضوء أزرق بارد، كأنها تحت الماء.
دخل ببطء. السكين في يده ترتجف، أم يده هي التي ترتجف؟ كانت نائمة.
اقترب.
حميد ،بهمس ، :
آخر فرصة، اصحي، ووافقي.
تحركت .فتحت عينيها.
الأم ،بغضب مفاجئ،:
إطلع بره يا كلب! مش هتتجوزها!
في تلك اللحظة، لم يعد يرى أمه.
رأى السجن. رأى الرفض. رأى نفسه، مكسورًا إلى الأبد.

صرخ.
لم يكن صوت إنسان. كان صوت شيء ينكسر للأبد.
انقض. طعنة. ثم أخرى. ثم فوضى.
حميد ،يبكي، يصرخ ، :
أنا آسف، آسف يا أمي، بس إنت السبب!
لكن الاعتذار، جاء متأخرًا. دائمًا يأتي متأخرًا.
الدم كان دافئًا .والحب، كان قد تحوّل إلى جريمة.
*
ركض إليها، بقلبٍ يظن أنه انتصر.
حميد ،بلهفة مجنونة ، :
حصل! خلاص، مفيش حاجة هتقف بينا!
نظرت إليه، ثم إلى يديه. الدم، لا يكذب.
سميحة ،بصوت مذعور، :
إنت، قتلتها؟ قتلت أمك يا مجنون؟!
تراجع خطوة.
كأن الأرض لم تعد تثق بوجوده.
سميحة
:أنا مش هتجوز مجرم.
، بصوت مكسور ،
أنا كنت بحبك، مش كده.
وابتعدت.ليس لأنها لم تحبه، بل لأنها لم تعد تعرف من هو.
*
المصنع

ضوء النهار يتسلل من النوافذ العالية كحقيقةٍ لا تُطاق، أبيضَ فاقعًا، يفضح الغبار العالق في الهواء، ويُعرّي الوجوه من أقنعتها. كان كل شيء صامتًا على نحوٍ يشي بالصراخ؛ الماكينات متوقفة، لكنها ما تزال تحمل ذاكرة الضجيج في جوفها.

دخلت الشرطة.

لم يكن الدخول عنيفًا بقدر ما كان حاسمًا، كجملةٍ نهائية في كتابٍ طويل. وقعُ الأحذية الثقيلة على الأرض الإسمنتية بدا كنبضٍ خارجي، ينافس اضطراب قلبه.

الضابط، بصوتٍ لا يخلو من برودةٍ متعمدة:

حميد حسانين... أنت مطلوب بتهمة القتل.

لم يتحرك.

لم يكن في الأمر شجاعة، ولا استسلام. كان أقرب إلى انطفاءٍ داخلي. رفع عينيه ببطء، لا إلى الضابط، بل إلى نقطةٍ بعيدةٍ لا يراها سواه. كأن المشهد كله—المصنع، الرجال، الضوء—مجرد خلفيةٍ باهتة لشيءٍ آخر يحدث في داخله.

هل انتهى الأمر؟ أم أنه انتهى منذ زمن، وأنا فقط أتأخر في الاعتراف؟

اقترب الضابط خطوة، محاولًا أن يلتقط في عينيه مقاومةً ما، شرارةً تُبرر المطاردة. لكن عيني حميد كانتا خاليتين، كغرفٍ أُفرغت من أثاثها بعد حريقٍ طويل.

هل ستنكر؟

ابتسم حميد، ابتسامةً واهنة، بالكاد تُرى :

الإنكار يحتاج إلى ذاكرةٍ مرتبة... وأنا لم أعد أملك ذلك.

ساد صمتٌ قصير، ثقيل كحجرٍ في الحلق.

ثم قال، كمن يفتح نافذةً في جدارٍ مغلق :

كانت أمي... نعم.

ترددت الكلمات، كأنها تخشى أن تكتمل.

لكنها لم تكن مجرد أم. كانت... سقفًا منخفضًا، كلما كبرتُ اصطدم رأسي به. كانت جدرانًا تُضيّق عليّ حتى صرتُ أتنفس بصدري لا برئتي.

أخبرهم... أخبرهم كيف كانت تراقب أنفاسي، كيف كانت تسرق اسمي وتعيده إليّ مشوهًا. أخبرهم أنك لم تقتلها في لحظة، بل على مدى سنوات، قتلتك أنت أولًا.

رفع الضابط حاجبه، وفي صوته شيءٌ من الحذر:

هذا لا يبرر القتل.

ضحك حميد، ضحكةً خافتة، كأنها صدرت من مكانٍ أعمق من جسده:

أنا لا أبرر. أنا أحاول فقط... أن أفهم.

تقدم خطوة، فتوتر رجال الشرطة، لكن حركته كانت بطيئة، أشبه بانزلاق ظل :

تخيل أنك تعيش في غرفةٍ بلا نوافذ. كل يومٍ تقول لك: هذا هو العالم. هذا هو الضوء. وهذا هو الهواء. ومع الوقت... تصدق.

كنت أصدقها. كنت أصدق أنني لا أستحق أكثر. أن الخارج خطر. أن الحرية مرض .

أغمض عينيه لحظة، وكأن الذكرى لسعته :

ثم، في يومٍ ما، رأيتُ شقًا صغيرًا في الجدار. شعاعًا... ضئيلًا، لكنه كان كافيًا ليُربكني. أدركتُ أن هناك عالمًا آخر. وأن حياتي كلها كانت... كذبةً محكمة.

فتح عينيه، ونظر أخيرًا إلى الضابط :

حاولتُ أن أفتح الشق. لكنها أغلقت الباب.

صمت. كان الصمت هذه المرة مختلفًا؛ لم يكن فراغًا، بل امتلاءً بشيءٍ لا يُقال.

فكسرتُ الجدار.

هل كسرتُه حقًا؟ أم كسرتُ نفسي؟

اقترب الشرطيان لتقييد يديه. لم يقاوم. مدّهما بهدوء، كمن يُسلّم شيئًا لم يعد ملكه.

قبل أن يُقاد، التفت إلى الضوء المتسرب من النافذة العالية. بدا وكأنه يراه لأول مرة.

همس، لنفسه أكثر مما لأي أحد :

النافذة... كانت هناك دائمًا.

ثم انحنى رأسه قليلًا، لا خجلًا، ولا ندمًا كاملًا... بل كمن يعترف بأن الحرية، أحيانًا، تأتي متأخرةً حدَّ الجريمة.

*

الصوت يعود، ليس كصدىٍ بسيط، بل كاعترافٍ مؤجلٍ يرفض أن يموت.

الزمن يعود، لا كعقارب ساعة، بل كدوامةٍ تبتلع كل ما حاول حميد نسيانه.

لكن حميد، لم يعد كما كان.

في تلك اللحظة، داخل قاعة المحكمة، كان كل شيء يبدو بعيدًا عنه. الوجوه، الهمسات، حتى صوت القاضي نفسه كان يتكسر كزجاجٍ في أذنيه. كان جالسًا كمن يشاهد حياته من الخارج، كأن الجسد له، لكن الحكاية لم تعد كذلك.

القاضي :

"بعد المداولة، قررت المحكمة: السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة".

صمت.

لم يهتز. لم يصرخ. لم يحتج. فقط، ابتسم. ابتسامة صغيرة، غريبة، كأنها لا تنتمي للموقف، أو ربما، كأنها تنتمي له أكثر من أي شيء آخر.

في داخله، كان الحوار مختلفًا تمامًا.

ها هو الحكم، ليس عليهم فقط، بل عليّ. كنت أظن أنني أهرب، لكنني كنت أقترب. كنت أبحث عن الحب، فوجدت نفسي قاتلًا. كنت أريد حياة، فحكمت على نفسي بموتٍ طويل.

اقترب منه الشرطي، لمس كتفه برفقٍ آلي، كأنه يتعامل مع جسدٍ بلا روح .

"قم".

وقف حميد. لم ينظر خلفه. لم يبحث عن وجهٍ يعرفه. لأنه كان يعلم، أن الجميع قد أصبحوا غرباء، حتى هو لنفسه.

لكن الصوت عاد.

صوتها.

"لماذا يا حميد؟"

توقف الزمن في داخله. لم يكن الصوت حقيقيًا، ومع ذلك كان أكثر واقعية من كل ما حوله.

لماذا؟ لأنني لم أفهم نفسي، لأنني خفت، لأنني ظننت أن الحب امتلاك، وأن الفقد نهاية، لا تحوّل.

ردّ بصمت، وكأنه يحاورها في فراغٍ لا يراه أحد :

"لم أقصد أن أؤذيك، كنت فقط أحاول ألا أضيع".

لكن صوتها لم يكن حنونًا هذه المرة .

"فضعت، وأضعتني معك".

اهتز شيءٌ خفي في داخله، شيء لم تهزه المحكمة ولا الحكم. شعورٌ ثقيل، ليس ندمًا فقط، بل إدراك. إدراك متأخر، كضوءٍ يصل بعد أن يكون كل شيء قد احترق.

اقتادوه خارج القاعة.

الخطوات تتلاشى، لكن كل خطوة كانت كأنها تغوص أكثر في داخله، لا في الممر.

أحد الحراس تمتم :

"غريب، لم ينطق بكلمة ".

آخر ردّ:

"بعض الناس ، ينتهون من الكلام قبل أن يُحكم عليهم".

ابتسم حميد مرة أخرى، لكن هذه المرة لم تكن ابتسامة اعتراف، بل استسلام.

هل انتهيت كإنسان ؟ أم بدأت؟ هل السجن جدران تخفي الحقيقة أم أنا؟

توقف لحظة قبل أن يعبر الباب الحديدي. نظر إلى الضوء في الخارج، لم يكن حرية، بل ذكرى.

ثم همس، بصوتٍ بالكاد سُمع:

"القصة لا تنتهي، لأنها لم تبدأ كما يجب".

أُغلق الباب خلفه.

لكن في الداخل ، كان الزمن لا يزال يعود ، والصوت لا يزال يتكلم،

وحميد ، يتحوّل إلى الحكاية نفسها. إلى قصة قابيل و هابيل ، و لكن بشيء مختلف

*

في مكانٍ ما خارج الزمان ، بعيدًا عن القوانين التي وضعها الانسان لأخيه الانسان ، قريبًا من الحقيقة، الحقيقة المرة التي لن يتقبلها الانسان .

يسأل صوت خافت:

"هل كان قاتلًا؟ أم كان ضحية تأخرت في الصراخ؟"

لكن لا أحد يجيب. لأن بعض الأسئلة، تُترك معلقة، كدمعةٍ لم تسقط أبدًا.